موجة الفتح

«لم يكن هذا فتحًا كغيره من الفتوح يا أمير المؤمنين، فإن الوقعة كانت أشبه باجتماع الحشر يوم القيامة»...

هكذا كتب موسى بن نصير أمير إفريقية إلى الخليفة الوليد فى وصف انتصاره بموقعة وادى لكة.

وليس عجيبًا أن يدهَش المسلمون لنصرهم المؤزر الحاسم، أو أن يتملكهم الزهو بهذا الفتح المبين، لأننا إذا ألقينا جانبًا الأساطير والأوهام التى لفقها مؤرخو الإسبان حول سقوط لذريق، ورجعنا إلى التاريخ المتئد غير المتحيز، رأينا أن انتصار المسلمين فى وادى لكة ألقى بإسبانيا كلها فى أيدى العرب. فقد ربح طارق ومن معه من الاثنى عشر ألف بربرى الجزيرة جميعها، ولم يكن فى حاجة إلا إلى قليل من الجهد، ليقضى على المقاومة الخائرة فى بعض المدن.

ولم يضع طارق وقتًا فى متابعة انتصاره، فقد تقدم هذا القائد المجدود بلا تردد، متحديًا أمر موسى، الذى كان يتحرق حسدًا لما ناله جنديه البربرى من المجد الذى لم يكن يخطر له ببال؛ وقسم طارق قوته ثلاث فرق أو كتائب، وبثها جميعًا فى شبه الجزيرة، فأخضع مدينة إثر مدينة، بعد مقاومة لا تكاد تذكر.

وأرسل مغيث بن الحارث على سبعمائة فارس لامتلاك قرطبة، فأخفى جنوده، حتى إذا جاء الليل تقدم نحو المدينة، واتفق فى

ذلك الحين أن سقط هاطل من البرَد أخفى وقع سنابك الخيل، فعد المسلمون ذلك عناية من الرحمن، والتقوا براعي غنم أرشدهم إلى ثغرة في سور المدينة، فعزموا أن يجعلوا منها منفذًا لهجومهم؛ وتسلق رجل منهم كان أكثرهم نشاطًا وأشدهم حمية شجرة تين كانت تحت الثغرة؛ ثم وثب منها إلى السور، حتى إذا استقر به خلع عمامته، وأرسل بطرفها إلى بعض أصحابه، ثم جذبهم إليه واحدًا واحدًا، حتى إذا نزلوا من السور إلى داخل المدينة دهموا حراس الأبواب ففتحوها للفاتحين، وتم الاستيلاء عليها دون عناء.

وعندما دخل المسلمون قرطبة التجأ حاكمها وحرسها إلى دير يعصمهم من العدو، ولزموه ثلاثة أشهر محاصرين، حتى إذا انتهى أمرهم إلى التسليم بقيت المدينة بأيدى اليهود الذين أثبتوا صدق إخلاصهم للمسلمين فنالوا عطفهم ورعايتهم، ونظر العرب إليهم نظرتهم إلى الصديق، فلم يضطهدوهم كما اضطهدهم قساوسة القوط إلا فى العهد الأخير، فحيثما اتجه سلاح المسلمين سار اليهود من ورائه متابعين متزاحمين، فالعرب يحاربون واليهود يتجرون، حتى إذا ألقت الحرب سلاحها رأيت اليهود والعرب والفرس وقد اجتمعوا على إنماء التعليم، والفلسفة، والآداب، والعلوم، إلى غير ذلك مما ميز حكم العرب، وأرسل شعاعه فى العصور الوسطى منيرًا وهاجًا.

وجـرت فتوح طارق شـوطًا بعيدًا بمعاونة اليهود، وشـدة فزع الإسبان، فاستولى على أرشُذونة دون أن يلقى مقاومة، وفر سكانها إلى التلال، وألقت القياد مالقة، وعصفت الحرب بإلبيرة، (بالقرب من مكان غرناطة الآن).

ودافـع تُدمير (Theodemir) حينًا عن شـعاب جبل مُرسـية بشـجاعة وصبر، ولكنه دفع إلى ترك معقله، والاشتباك مع العرب فى موقعة طاحنة حطم فيها جيشـه تحطيمًا، وفر مع خادم له إلى مدينة أوريولة؛ وهناك فكر فى أن يلقى مطارديه بخديعة بارعة؛ فإنـه حينمـا رأى أن الحرب لم تكـد تبقى على رجـل بالمدينة، لسـقوط شبان مرسـية فى المعركة جميعًا، جمع النسـاء وألبسهن ثياب الرجال ووضع الخوذ على رءوسـهن، وسلحهن بقصب يشبه الرماح، وأمرهن أن يضعن شعورهن فوق الذقون كاللحى، ثم وزعهن على أسـوار المدينة. فلما اقترب المسلمون فى دغش الشفق، سُقط فى أيديهـم لما رأوا من قوة الدفاع عن المدينة؛ وبعدئذ حمل تُدمير بيده راية الهدنة، وألبس خادمه عباءة يلبسها السفراء، وذهبا لمفاوضة القائد المسـلم الذى لم يعرف الأمير الإسبانى، فأحسن استقبالهما، ثم قال لـه تُدمير: «لقد قدمت نائبًا عن حاكـم المدينة لأفاوض فى شروط تليق بعظيم تسامحك، وشرف منزلته! فأنت ترى أن المدينة جديرة بأن تثبت أمام حصار طويل، ولكن الحاكم شديد الرغبة فى الإبقاء على حياة جنوده، فعدنـى بأن يغادروا المدينة أحرارًا دون

أن يمسهم سوء أسلمها إليك غدًا بغير حرب، وإلا فقد وطدنا العزم على القتال إلى آخر رجل»، فقبل القائد ما عرضه عليه.

ثم وضعت شروط التسليم كما أحب. وبعد أن ختمها القائد وأمضاها تُدمير، التفت إلى القائد قائلًا: «انظر إلىَّ فأنا حاكم المدينة».

وعند الفجر فتحت أبواب المدينة، واتجه المسلمون ليروا الحامية القوية خارجة منها؛ ولكنهم لم يروا إلا تدمير وخادمه فى درع محطمة، وخلفها جمع من الشيوخ والنساء والأطفال، فسأله القائد العربى: «أين الجنود ورجال الحامية الذين رأيتهم حول الأسوار البارحة؟» فأجابه: «ليس لدى من الجند أحد؛ أما رجال الحامية فها هم أولاء أمامك، فانظر إليهم، فبهؤلاء النسوة حصنت أسوارى؛ أما هذا الخادم فهو سفيرى وحارسى وحاشيتى».

فأخذ القائد العجب من جرأته، وسر من براعة حيلته، فعينه حاكمًا لمقاطعة مرسية التى سماها العرب بعد ذلك باسمه. وتدل هذه القصة على كرم العرب ورقة طباعهم. ولا ريب فقد كانوا مُثلا عالية للفروسية الحقة التى طالما ازدانت بها أعمالهم، وكانوا يمتازون بالعفو عند المقدرة، وبكثير من صفات البطولة والنجدة التى حملت الإسبان بعد تغلبهم عليهم على أن يلقبوهم «بفوارس غرناطة، وبالغطارفة، وإن كانوا عربًا».

وفى هذه الأثناء، كان يضغط طارق على طليطلة قصبة القوط، لأنه كان يجدّ فى طلب أشراف القوط، فقد بحث عنهم فى قرطبة

ففـروا قبل جيئته. ولما دخل طليطلة التى أسـلمها إليه اليهود، لم يجد بها للأشراف أثرًا، فقد غادروا المدينة قبل دخوله، والتجئوا إلى صخرة أشتورش (أسـتورياس) ولم يبق بطليطلة إلا الخونة من أسرتى غيطشة ويوليان الذين كوفئوا بمناصب فى الدولة، أما سراة المملكة فقد هجروها وأسلموها للعرب، فصارت ولاية تابعة للدولة الأموية، التى جعلت مقر حكمها بدمشـق ووسعت رقعة مملكتها من جبال الهند إلى أعمدة هرقل.

وترك لموسـى بن نصير إخضاع ما بقى من الأندلس، فإنه حينما سمـع بفوز طارق المطرد، عـبر المضيق على عجل بجيش من العرب فى صيف سـنة ٩٣ هـ / ٧١٢ م، لينال نصيبـه كاملا من المجد، وكان عدد رجاله ثمانية عشـر ألفًـا، فاتصل بطارق فى طليطلة بعد أن أخضع قَرْمونة وإشـبيلية ومارِدة. ولم تكن مقابلة القائد الأعلى الفاتح مقابلة ود وصداقة؛ فإن طارقًا حينما سـارع إلى لقاء موسـى فـى حفاوة وتكرمة عاجله هذا بالسـوط، وأخذ يقرعه ويعنفه على مجاوزة أوامره، معلنًا أنه لن يسـتطيع أن يضمن سـلامة المسلمين، فـى يد قائد مخاطر مثله، ثم زج به فى غيابة السـجن[1]، ولما علم الخليفة الوليـد بما وقع لطارق وما أصابه مـن الظلم، الذى أثارته الغيرة وصبه الحسـد - استدعى موسـىإلى دمشق، وأعاد طارقًا إلى القيادة بإسبانيا.

---

(١) أعتقـد أن هذه الحادثة غير صحيحـة وإن تواترت كتب التاريخ على نقلها. وأغلب الظن أنها من وضع العباسيين.

وقبل أن يعود موسى إلى الشام، كان قد بلغ جبال البرت (البرانس)[1] وأطل منها، فجالت بخياله صورة لفتح أوربا كلها، ولكنَّ دعوة الخليفة عاقته عن الاستمرار فى تقدمه، فقام بهذا الأمر غيره[2].

ذلك أن حاكمًا[3] عربيًّا تملك فى سنة ٧١٩ م / ١٠١ هـ القسم الجنوبى من الغال المسمى: «سبتمانيا» بما فيه من مدينة قرقشونة، وأربونة ... وأخذ من هذين المركزين يغير جيشه على برغاندى، وأقيتانية. غير أن يوديس دوق أقيتانية استطاع قهر العرب عند أسوار طَلوشة (تولوز) سنة ٧٢١ م / ١٠٣ هـ، فلم يفت هذا الغلب فى عضدهم، بل حفزهم إلى الاتجاه نحو الغرب، فنهبوا بونة، وفرضوا الضرائب والإتاوات على سان، واستولوا على أفينون سنة ٧٣٠ م / ١١٢ هـ وتوالت غاراتهم على الولايات المجاورة.

وقد وطد العزم عبد الرحمن حاكم أربونة الجديد، على التغلب على كل بلاد الغال، فإنه بعد أن وقف تقدمَ يوديس الذى حاول بعد انتصاره فى طلوشة أن يغزو أرض المسلمين، هجم على طَرَكونه وفتح أقيتانية، وهزم يوديس عند شاطئ الجارون.

---

(١) ويقال لها البرينات أيضًا.

(٢) توفى موسى مغضوبًا عليه من الخليفة سنة ٩٧ هـ.

(٣) هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى، استشهد فى سنة ١١٤ هـ سنة ٧٣٢ م بموقعة بلاط الشهداء.

واستولى على برديل (بوردو) عنوة عندما سمع بالكنوز المذخورة بدير القديس مارتن، وقابل شـارل بن بيبـين الذى كان فى الواقع ملـك فرنسـا الفعلى، لأن ملكهـا كان ضعيف العـزم، يكاد يكون محجورًا عليه من رئيس القصر.

وتقـدم المسـلمون إلى الغزو فرحـين مستبشـرين، ظانين أنهم سـيلاقون مـن النصر ما لاقوه فـى موقعة وادى لكـة، وتوقعوا أن يروا فرنسـا الجميلة من كاليه إلى مرسيليا، وقد سقطت فريسة فى أيديهـم. وفى الحق إن مصير أوربا كان فى الميزان، حتى لقد عدت هذه الموقعة من المواقع الخمس عشرة الفاصلة فى حياة البشر، وكان السـؤال العظيم الذى كان جوابه فى شفار السيوف وأسنة الرماح، هو: «أتصبح أوربا مسـيحية أم مسلمة؟ أتكون نوتردام التى لم تبن بعد كنيسـة أم مسجدًا؟ أتردِّد كنيسة سنت بول تراتيل المسيحية، أم تدوّى بها أصوات المصلين من المسلمين؟» ذلك أنه لم يكن هناك من سـبب يدعو مطلقًا إلى وقوف الفاتحين عند ساحل المنش إذا لم تصد جيوشـهم عند تور؛ ولكن قضت الأقدار بأن مد الغزو الإسلامى قد بلغ غايته، وأن الجزر أخذت تبدو مظاهره للعيان.

لم يكن شـارل والإفرنج من أتباعه من الصنف الخائر العزيمة، الضعيف المخنث، كبقايا الإسبان والرومانيين والقوط، بل كانوا فى الشجاعة والشدة أكفاء للعرب أنفسهم وأمثالا، وكان لهم من بسطة الجسم، وعنفوان القوة، ما كان له أكبر الأثر فى أعدائهم.

وقد قضى الجيشان ستة أيام فى المناوشة، واشتد الالتحام فى السابع وحمى الصدام، فاخترق شارل صفوف العرب بصولة لا تقاوم، ثم أخذ يرسل يمينًا وشمالا ضرباته القوية التى سمى من أجلها: بشارل مارتل، أو إن شئت: «شارل المرزبة أو المطرقة» وسرت روحه فى جنوده فانقضوا على المسلمين بقوة ساحقة، فتمزق جيشهم ولاذوا بالفرار، ودعى بين الحزن والذعر مكان هذه الموقعة ببلاط الشهداء حينًا من الدهر طويلا.

زال الخطر عن غرب أوربا لأن كارثة العرب كانت فادحة حتى إنهم لم يفكروا طوال القرون التى حكموا فيها فى الجنوب أن يغزوا فرنسا. نعم إنهم احتفظوا بأربونة وبالجهات المشارفة للسفوح الشمالية لجبال البرت (البرانس) حتى سنة ٧٩٧ م/ ١٨١ هـ؛ ثم خاطروا بإرسال غزوات على بروفانس - ولكن طموحهم لم يصل بهم إلى أبعد من هذا، فإن موقعة «تور» حققت استقلال فرنسا، ووقفت سدًّا أمام الفتوح العربية.

لقد غمرت حشود العرب الأرض كما يغمرها مد البحر. وكانت جيوشهم تملأ كل مكان، ولكنهم الآن بعد هزيمتهم الساحقة أصبحوا يسمعون صوتًا غريبًا يرن فى آذانهم صائحًا: «هنا ستقفون، وهنا ستستقر أمواجكم المزهوّة المغرورة».

وكان ملوك فرنسا مع كل هذا يثقون بشجاعة جيرانهم العرب، ويخشون بأسهم - حتى إنهم - وإن فرحوا أحيانًا بانتصارهم عليهم

فى وقائع صغيرة - لم يحاولوا إخضاع إسبانيا إلا مرة واحدة. ذلك حينما فقد قارْله (شارلمان) - الذى شبهوه بالإسكندر - راحته وأحس بقلقه لشدة مناعة العرب فى الجانب الآخر من جبال البرت، وظن أن من واجب المسيحى، أن يستأصل شأفة الملحدين، ورأى أنه وهو الملك العظيم المظفر، لا يجمل به أن يحتمل إلى جانبه دولة مستقلة بالأندلس. وقد سنحت له الفرصة فى النهاية، حينما ثار بإسبانيا بعض القبائل لتولية أول أمير أموى، وقد دأبت القبائل طيلة أيام العرب بالأندلس على السخط والهياج. فدُعى شارلمان للتدخل فى الأمر وطرد الأمير الغاصب.

ويزعم مؤرخو الإسبان: أن ألفونسو ملك أشتورش (أستورياس) هو الذى استنجد بملك فرنسا، ولكن الأرجح أن الدعوة جاءت من بعض زعماء المسلمين[1]، الذين خابت آمالهم وانعكست مطامعهم فى عبد الرحمن الداخل الأموى، حتى أصبحوا يؤثرون الخضوع لعدو الإسلام اللدود على قبول هذا الأمير الجديد.

وكان ما طلبوه من شارلمان محبوبًا إلى نفسه، ملائمًا للفرصة التى كان يتوقعها، وكان الدهر فى هذا الحين مبتسمًا لشارلمان لأنه أتم إخضاع السكسون ونفى زعيمهم «وتكند» وأقبلت الألوف

(١) هم: سليمان بن يقظان الأعرابى الكلبى حاكم برشلونة، وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى، وأبو الأسود بن يوسف.

من أصحابه إلى بادربون للدخول فى المسيحية زمرًا. وأصبحت يد الفاتح حرة طليقة، تتجه أنى شاءت للغلب والانتصار.

فتم الاتفاق بين المتآمرين على أن يغزو شارلمان إسبانيا، بينما يعمل الزعماء الساخطون على توجيه الجيش العربى إلى ثلاث جهات متباعدة، وكان من حسن طالع أمير قرطبة أن هذا الاتفاق الخطر لم يتم منه شىء، فإن حلفاء شارلمان أخطئوا فى حسبان الزمن، ثم تنازعوا وصاحت صائحة الحرب بينهم، فلما اخترق شارلمان البرت سنة ٧٧٧ م / ١٦١ هـ لم يجد ناصرًا ولا معينًا، فأخذ يحاصر سرقسطة، وبينما هو عند أسوارها إذ وصلت إليه الأخبار بأن «وتكند» عاد وأثار السكسون وتقدم بهم حتى وصل إلى كولون، فلم يجد شارلمان بدًّا من أن يعود أدراجه لحماية مملكته، فاقتحم بجيشه شعاب الجبال، وفى شعب رونسسفال[1] نزلت بمؤخرته كارثة فادحة قضت عليها، فإن البشكنش - وقد أحرقت صدورهم العداوة القديمة الدائمة للإفرنج - وضعوا لهم كمينًا فى أغوار صخور البرت، وانتظروا، حتى إذا مرت مقدمة الجيش من الشعب انقضوا على المؤخرة، وكانت بطيئة السير محملة بالأثقال، فاستأصلوا رجالها حتى لم يكد يفر منهم أحد من يد الموت.

ويقص علينا المؤرخون المسيحيون ما تقشعر له الأبدان من مذابح هذا اليوم. ويذكروا أن المسلمين وفرسان ليون تعاونوا على تحطيم

---

(١) يسميه العرب باب الشزرى.

جيش الإفرنج. وتصور لنا أنشودة إسبانية كيف أن البطل برناردو كان يقود فرسان ليون فى مذبحة جيش الإفرنج فتقول:

مشى برنارد فى جيش ضخام ... يسوق إلى الفرنج به أسودا
ليحمى أرض إسبانيا ويعلى ... شعار «بلاى» والشرف التليدا
وإنا سادة الأحرار لكن ... رضينا أن نكون له عبيدا
نتابع ريش خوذته ونمضى ... قريبًا كان يقصد أو بعيدا
وعاهدناه أن نفنى جميعًا ... وإنا خير من حفظ العهودا
أنلقى بالبنين لمستبد ... يطيح بهم ويرهقهم صعودا
وبين ضلوعنا قلب جرىء ... يمد إلى العدا زندًا شديدا؟
أيطمع شارل أن يبقى مليكًا ... لعرش ليون جبارًا عنيدا؟
لقد كذبت أمانيه فإنا ... سنحصد جمعه حتى يبيدا
ويبقى شعب ألفونسو شريفًا ... ويبقى ملك ألفونسو مجيدا

حارب العرب كتفًا إلى كتف لاستئصال الإفرنج مع أبطال ليون الذين أبَوا أن ينضموا إلى أمير أستورياس فى خضوعه لشارلمان، ويحدثنا أبسيدو ترْبن فى تاريخه القصصى لشارلمان وأرلاندو «بهجوم ثلاثين ألفًا من العرب على جيش المسيحيين، وقد امتلئوا غضبًا وحقدًا. وكان المسيحيون مجهدين يترنحون للسقوط لطول ما قاتلوا من قبل، فحصد المسلمون رجالهم، ولم يبقوا منهم على أحد، فمنهم من نفذت الرماح من أحشائه، ومنهم من هشمته القضبان،

ومنهم من طاح رأسه بالسيف، ومنهم من سلخ حيًّا، ومنهم من شنق فتدلى من الأشجار».

كانت المذبحة مفجعة، ولمْ تمح ذكرى هذا اليوم من أخيلة سكان هذه الجهة على طول الدهر، حتى إن الجيش الإنجليزى حينما تعقب قواد نابليون فى شعب رونسسفال سمع الناس يتغنون بالأنشودة القديمة التى قيلت فى هذه المعركة الطاحنة. وأخذ شعراء إسبانيا الجوالون يضيفون إليها كثيرًا من الحوادث، إن صدقًا وإن كذبًا. ومن أشهر الأناشيد أنشودة أمير البحر جارينو – التى سمعها الدون كيشوت، وشانكو بانزا تغنى بتوبوسو – وهى:

يا فرنسا قد كان يومك حقًّا ... عند رونسيسفال يومًا عصيبا
كان برنارد فيه سيفًا فولى ... وسنانًا لشارلمان صليبا
وجرينو قد كبلته قيود ... فهو يدعو فلا يلاقى مجيبا
حوله سبعة من العرب أبطال ... يُرى بينهم أسيرًا غريبًا

وهكذا تمضى الأنشودة، فتقص علينا قصة أسر جارينو، ثم انتقامه بذبح آسره فى المبارزة، ثم فراره إلى فرنسا.

وكان ممن ذبحوا فى هذا اليوم الأيوم رولند الشجاع؛ وهو من قواد شارلمان الاثنى عشر وقائد حدود بريتانى. وقد صوره خيال الشعراء بطلا فى قصة شارلمان، ونسب إليه من أعمال الفروسية والشجاعة ما يتردد العقل فى قبوله.

فقد قيل: إنه حارب طول اليوم، وقذف بنفسه فى أشد مواقع المعركة التحامًا ضاربًا بسيفه «ديورندا» إلى اليمين وإلى الشمال، ولكن شجاعته لم تغن عنه شيئًا ولم تكسبه المعركة، فارتمى إلى الأرض جريحًا محاطًا برجاله وأخذ يجود بنفسه. ويقولون: إنه قبل أن يسلم الروح استل سيفه الأمين من قرابه وكان به ضنينًا، يؤثر أن يفقد الذراع التى جردته على أن يفقده وشرع يقول:

«أيها الحسام الذى لم يماثله سيف فى بريقه وصفاء مائه، وعظمته ولينه، ثم فى قبضته العاجية البيضاء المزينة بصليب ذهبى فاخر، فوقه تفاحة زبرجدية، حفر بها اسم الله الأقدس؛ لقد منحت مضاء، واستأثرت بمزايا ليست فى سواك، من ذا الذى سيشهرك فى المعارك بعدى؟! ومن هذا الذى سيكون لك صاحبًا؟ فإن مالكك لا يغلب، ولا تُرهبه الأعداء، ولا تخيفه الأوهام. فإذا صحبك وصحبته معونة الله، حطم المسلمين، وأعلى كلمة المسيح، وبلغ قمة المجد.

يا أيها السيف السعيد، يا أمضى المواضى، لقد عز لك النديد والنظير، فإن القين الذى طبعك لم يطبع لك أخا، وإذا ضربت لم يستطع الفرار من ضربتك أحد» ثم ضرب به صخرة قسمته نصفين مخافة أن يسقط فى يد جبان أو مسلم. ثم نفخ بجمع قوته فى بوقه الذى كان صوته يحطم الأبواق، حتى انفجرت أوداجه:

وأرسل بوقه المخزون صوتًا فردد فونترابيان صداه

ووصـل الصوت إلى أذن شـارلمان وهو فى معسـكره على ثمانية أميـال، غير عالم بالمصيبة التى حلت بمؤخرة جيشـه، وكاد الملك يهم بنجدة صاحب البوق المستصرخ، لولا أن أحد الخونة أخبره بأن رولند ينفخ فى بوقه للصيد. وهكذا لم يسـعف شارلمان قائده الأمين الذى فاظ بعد أن رتل صلاته وأدى اعترافه، ثم أسـرع بولدوين إلى شارلمان - وكان من نبلاء فرنسا - وأخبره بما حاق بمؤخرة الجيش وبموت رولند وأوليفر، عندئذ حول الملك عنان فرسـه وعاد بجيشه إلى رونسسفال، فرأى الجثث مبعثرة فى الميدان، ورأى جثة البطل ممددة على هيئة الصليب وبوقه وسـيفه المحطم إلى جانبه، فوقف يندبه فى حزن وأسى، وهو يردد الزفرات، ويعول إعوال الثكالى، ويضرب كفًّا بكف، وينتف لحيته، ويقول:

«يا يدى اليمنى، يا فخر الإفرنج، ويا سيف العدل، ويا رمحًا لا يلين ودرعًا لا تحطم، يا ترس الطمأنينة والسلام، يا حامى المسيحية وسوط عذاب الإسلام، يا حائط القساوسة، وصديق الأرامل واليتامى، يا أمين الرأى، ويا صادق الحكم، ويا أشـرف قومك، ويا أشجع قائد لجيش، لم تركتك هنا لتموت؟ كيف أراك ميتًا ولا أموت بعدك؟ لماذا تركتنى حزينًا وحيدًا، وخلفتنى ملكًا بائسًـا مسكينًا؟ ولكنك رفعت إلى السماء، وأصبحت تسعد بصحبة الملائكة والشهداء».

وهكـذا ظل شـارلمان يبكى رولند ويندبه طيلـة حياته، ثم أقام الجنود فى البقعة التى مات بها، وضمخوا جسده بالبلسم والطيب،

وسـهِر الجيش على حراسته يرتل الأدعية ويتلو الأناشيد، ويوقد النـيران على قمم الجبال حوله، ثم حمله الجنود معهم، واحتفلوا لدفنه كما يحتفل للملوك. وهكذا انتهى هذا اليوم الأسود...

حيث رونسفال كانت للفرنج الحمس لحدا

أليفر لاقى بها الحتف ورولنـــد تـــردّى

ولم يشـد التاريخ بعمل قليل الشـأن كما أشـاد بهذه المعركة، حتى لقد جعلها منبعًا لأسـاطير البطولة وأناشـيد الشعراء، فهى ثرموبيلى[1] جبال البرت (البرانس) فى التغنى بها وطول الحديث عنها، وإن لم يكن لها ذلك المجد، ولا هذا المغزى.

(١) ثرموبيلى: شـعب ضيـق فى بلاد اليونان، بين جبل أوتا والبحر، اشـتهر بالدفاع اليائس الذى قام به ملك الإسبرطيين ليونيداس، ومعه ثلثمائة جندى حينما وثب جيش الفرس على اليونان فى سنة ٤٨٠ ق.م.